المعرفة والسلطة في المجتمع العربي(*)

مراجعة رجاء مكي

هذه الدراسة جزء من مشروع أوسع يشمل دراسة الانتلجنسيا والتنمية في البلدان العربية. وغاية الجزء الراهن، تحليل مكانة الانتلجنسيا ووجاهتها ووظيفتها في صيرورة التطور الاجتماعي لهذه البلدان. بمعنى آخر، هي تحليل موقع الأكاديميين العرب ومكانتهم وسلطتهم تحليلاً ثقافياً واجتماعياً.

إن الموقع الاجتماعي للمثقفين، في أي زمان ومكان، يتحدد أصلاً ونوعاً بما يتمتع به المثقفون من نفوذ وسلطة. ويتجسد هذان النفوذ والسلطة في المعرفة التي تتمثل في المهارات والخبرات العلمية والفكرية وغيرها من الملَكات والقدرات التي يمتلكها المثقف أو جماعة المثقفين في مجتمع ما. . .

وبما أن المعرفة تشكل صنفاً من أصناف رأس المال، فإنها تخضع بالضرورة للقوانين التي يخضع لها رأس المال، فكلما كان المنتوج قليلاً، زادت قيمته وكثر الإقبال عليه وعظم احترام الناس له. ومنه أيضاً، أن سلوك المثقفين لا يختلف عن سلوك مالكي رأس المال الآخرين، فهم يسعون إلى استثمار أرصدتهم في سوق المعرفة ويخضعون لتقلبات العرض والطلب في السوق الذي يعرضون ويستثمرون فيه. ذلك أن المعرفة تتأثر قيمتها بمدى حاجات المجتمع لها من

(*) احمد صبور: المعرفة والسلطة في المجتمع العربي: الأكاديميون العرب والسلطة. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ١٩٩٢.

جهة، وتتأثر بمتطلبات النموذج المؤسساتي والرمزي، من جهة ثانية. وهكذا، كلما كان النموذج الايديولوجي يقدّر الرأسمال المعرفي وكان هذا الأخير يعزّز النموذج ويقوّيه، حصل أصحاب المعرفة على شكل مميز من السلطة ووُضعوا في موقع يمكنهم من التعامل مع المجموعات الأخرى ومساومتها من موقع قوة.

هناك علاقة وطيدة بين القيمة المعطاة للرأسمال المعرفي ودرجات رقيّ المجتمع وتقدمه، إذ إن حدود رأس مال المعرفة تُرسم وفقاً لما بلغه المجتمع من تقدم وتبعاً للأهداف المرسومة والوسائل المتبعة لبلوغها. وحسب الأولويات يخوّل النفوذ والسلطة لمجموعة أو مجموعات من الانتلجنسيا دون أخرى. وفي مجتمعنا العربي ـ الذي لا يزال في طور النمو ـ تحصل مجموعات التقنوقراطيين ورجال القانون والسياسة على موقع متميز في هرمية السلطة والنفوذ.

ومما لا شك فيه، أن واقع المجتمعات العربية هذا يتسبب في خلق توترات ونزاعات بين فئات المثقفين (بين مثقفي الأمراء ومثقفي الجماهير، بين المثقفين الموجهين تقنوطراطياً، وبين المثقفين الموجهين اجتماعياً وإنسانياً، بين المحافظين ومَن يتحداهم من أنصار التغيير، الخ).

لقد اعتمدت الدراسة ـ وجزئياً ـ في هيكلها العام على بورديو Bourdieu[1] الذي يربط بين المكانة الوجيهة لـ «الانتلجنسيا العليا»، وبين خصوصيات رأسمالها الثقافي والفكري وطبيعته. إذ بإمكان رأس المال هذا أن يصبح مصدراً للسلطة والنفوذ والتمييز. ومن ثم، يسعى الأكاديمي إلى مراكمة مصادر السلطة الأكاديمية وتنويعها، فهو يسعى إلى اكتساب كل صنوف رأس المال، من رؤوس أموال ثقافية واجتماعية وتعليمية ورمزية. وهو يرمي من وراء عمله ذاك إلى المحافظة على موقعه المهيمن وعلى حمايته من المنافسين والقادمين الجدد إلى المجال الأكاديمي.. كما يرى «بورديو» في شأن سلطة الأكاديمي أن هذه السلطة تتشكل من جهة أولى، من القدرة على التأثير في التوقعات، ومن جهة ثانية، من التأثير

(١) P. Bourdieu, Homo Académicus. London. Polity Press, 1988.

في الاحتمالات الموضوعية (خاصة فيما يتعلق بالحد من عدد المنافسين المحتملين).

من ناحية أخرى، يربط اندرسكي Anderski[1] في تحليله لوقع المثقفين بخصوصيات الخدمات التي يقدمونها والمهارات التي يمتلكونها ومدى حاجة المجتمع إليها، ومدى توافرها أو قلّتها فيه. ويرى أن سلطة المثقفين تتحدد بعاملين: الوجاهة (وجاهة المثقف والمعرفة في المجتمع)، وطبيعة النموذج الايديولوجي المهيمن في المجتمع.

وميّز غولدنر Gouldener في الانتلجنسيا بين فئتين: المختصين في العلوم الإنسانية وفئة التقنيين. تسعى الفئة الأولى إلى تحدي الواقع الراهن، وتعمل الثانية على بناء النموذج المهيمن وتدعيمه. وبما أن الايديولوجيا التقنوقراطية والعلمية هي السائدة في مجتمعات اليوم، فإن انتلجنسيا التقنوقراطية تملك رأس مال معرفي تفوق قيمته قيمة الرساميل التي تملكها الفئات الأخرى[2].

هذا، ويرى الكاتب أنه على الرغم من أن «غولدنر» يتخذ مرجعيته الأساس من المجتمعات الصناعية، فإن أفكاره ملائمة لتحليل التوجه التقنوقراطي في عدد من الأقطار العربية.

تألفت دراسة الأكاديميين العرب والسلطة من أحد عشر فصلاً نقدمهم سريعاً على الشكل التالي:

١ ـ الفصل الأول: غايات الدراسة وأهدافها ومنهجها.

٢ ـ الفصل الثاني: وصف موقع الأكاديميين العرب وتمثلاتهم لمجالهم الجامعي.

---

(١) S. Andreski, The Uses of Comparative Sociology. Los Angelos; Berkely, Calif. University of California Press. 1965.

(٢) A.W. Gouldner. The Future of Intellecttuals and the Rise of the New Class: A Frame of Reference, Theses, Conjectures, Arguments, and a Historical Perspective of the Role of Intellectuals and Intellegentsia in the International Class Contest of the Modern Era (New York, Macmllan Un. Press. 1979).

٣ ـ الفصل الثالث: موقع الأكاديميين في البنية الاجتماعية.

٤ ـ الفصل الرابع: دراسة التكوين الثقافي والتاريخي للمثقف الأكاديمي العربي.

٥ ـ الفصل الخامس: فصل مخصص للمرأة الأكاديمية العربية.

٦ ـ الفصل السادس: تحليل نظري لاستعمال النفوذ والسلطة واستغلالهما في المجال الأكاديمي.

٧ ـ الفصل السابع: العلاقة بين السلطة والنفوذ واكتساب المحترمية.

٨ ـ الفصل الثامن: مظاهر الصراعات بين الأكاديميين العرب وخصوصياتها.

٩ ـ الفصل التاسع: مكانة الأكاديميين ووظيفتهم.

١٠ ـ الفصل العاشر: خلاصة نتائج الدراسة.

١١ ـ الفصل الحادي عشر وهو فصل الختام، إذ تحدث الأساتذة المستجوبون.

من هم المشاركون ـ المستجوبون في الدراسة

هم ـ وبشكل نهائي بعد فحص الإجابات غير اللاغية ـ ٦٤٠ شخصاً موزعون وبالتدرج على: مصر ـ سوريا ـ المغرب والإمارات العربية المتحدة.

إذاً، لقد تجمع في الدراسة ٦٤٠ استمارة اختير من أصحابها ١٣٠ شخصاً لإجراء المقابلات معهم (قام بها الباحث نفسه)، اعتماداً على اللغة العربية في معظم الحالات واللغة الفرنسية في حالات قليلة، وتركت حرية اختيار المكان للشخص نفسه. وهم يمثلون جميعاً مجالات ثقافية وأكاديمية وسياسية ومهنية واقتصادية وتقنية، وبديمقراطية مختلفة.

توزعت الحقول المعرفية لهؤلاء المستجوَبين على العلوم التقنية والهندسية المعمارية ـ العلوم الطبيعية والطب ـ الحقوق والاقتصاد ـ العلوم الإنسانية

والاجتماعية والثقافية والفنون. أما وظائفهم في الجامعة، فتراوحت بين الأستاذ والأستاذ المساعد والمحاضر المساعد.

أما لماذا تم اختيار هذه البلدان الأربعة بالذات دون غيرها، فلأنها تمثل إلى حد بعيد ـ في نظر الكاتب ـ الاتجاهات الايديولوجية والاجتماعية والجيو ـ سياسية في الوطن العربي[1]، وهذا ما جعل الكاتب يسمح لنفسه بالاستعمال النسبي لمفهوم المثقف الأكاديمي العربي بمعناه الواسع والبعيد، مع لفت النظر إلى أن حصيلة المعلومات تحمل طابعَ مؤشرٍ دلالي، أكثر مما تحمل مؤشر طابع نهائي.

من الصعوبات التي واجهت الدراسة صعوبة القيام بدراسة مقارنة موسعة بين البلدان الأربعة لعدم تناسب الأعداد الممثلة لكل بلد مع حجم البلد والبلدان الأخرى.

الفرضية الأساسية التي انطلقت منها الدراسة، هي أن الرجل الأكاديمي مرتبط بسياقه عبر علاقات متعددة ومتنوعة. فهو يدرك نشاطه، مثلاً وفق متطلبات الظروف المهيمنة في وجوده، ووفق الإدراك الذي اكتسبه واستوعبه تاريخياً من الواقع الجدلي الذي ينتجه سياقه. وهو في تمثّله نشاطه في هذا السياق ومن خلاله، يحاول تعديله وتنظيمه حتى يستجيب لتطلعاته ويرضي رغباته في الوصول إلى المكانة الاجتماعية المتميزة، وإلى اكتساب أهلية الاحترام[2].

لهذا، فقد اعتمد الباحث في دراسته ستة مستويات:

١ ـ دراسة الأكاديمي بصفته فرداً يركز على الذات وتحركه المصلحة الذاتية.

٢ ـ اعتباره حاملاً للمعرفة.

٣ ـ الأكاديمي في إطار الوظيفة التي يقوم بها.

٤ ـ الأكاديمي في تحديده الثقافي (نتاج لثقافة).

---

(١) ص ٢٤ من الكتاب.

(٢) ص ٢٦ من الكتاب.

٥ ـ الأكاديمي في تحديده السوسيوتاريخي وانتمائه.

٦ ـ الأكاديمي في اهتمامه العالمي (دراسته في إطار الطرق التي تصله بخطاب الثقافة العالمية).

ولا ننسى أن الأكاديمي ـ وفي إطار هذه المستويات ـ خاضع إما لتأثيرات الثقافة الغربية، أو الثقافة العربية الإسلامية، أو لتأثيرات الاثنين معاً.

إن هذه العوامل المختلفة بإمكانها أن تؤثر في الصورة التي يكوّنها الأكاديمي عن نفسه وعلى تمثّله ذاته ومكانه. لهذا، فهي تمثل نشاطه المهني والثقافي والسوسيوثقافي، كما لو كان ذلك النشاط انعكاساً لها وتحت تأثيرها، أنها عوامل متداخلة.

يعتبر د. صبور أن مسألة «الهابتوس » Habitus يمثل دوراً أساسياً في تحليل الأكاديميين العرب، لأن بناهم الذهنية ووضعهم الثقافي والاجتماعي والتاريخي يشكل فيها الهابتوس تقاليد ثقافية مزدوجة المصدر: التقاليد العربية والتقاليد الغربية ـ تلك ازدواجية تخص المجتمعات النامية وليس فقط البلدان العربية. والهابتوس هنا يعني تصور الشخص لذاته ولدوره في محيطه. إن تمثلات الأكاديمي عن نفسه تشكل صيغة من صيغ التماهي المعرفي والثقافي والاجتماعي للفرد مع المثل والقمع والمصالح ونمط العيش التي يشاركه فيها أفراد تجمعهم الخصائص المشتركة، إنها عمل توليفي تطبعه العفوية والرمزية، وهو عمل واعٍ يتم فيه الاندماج والتماهي، وفيه تقوّم الذات العقلانية للمثقف موقعه ضمن الجماعة أو المجموعة التي ينتمي إليها وترسم حدودها.

هذه الجماعة هي مجال (الجامعة) له رموزه وقيمه ومكانته التي لا يتمكن من الاندماج فيها والتماهي معها إلّا صنف خاص من الأفراد توافرت فيه قدرات معينة واستعدادات خاصة. وتطبع المواقع فيها بعلاقات **تبادل وتمايز**.. إن كل العاملين في هذا المجال يرتبطون بعلاقات تراتبية تسير في البعدين الأفقي والعمودي، وتشمل علاقات الهيمنة والتبعية والشعور بالدونية أو بالفوقية، وتتميز المواقع بطابع الازدواجية.. وتنبني الاختلافات داخل المواقع على الفروق

في السلطة. . . لكن ما يحرك دوافع عمل الأكاديمي ونشاطه، تطلعاته إلى الامتياز بكل ما يحمل من مظاهر (امتياز في الوظيفة ـ امتياز ناتج عن الصيت المعرفي والامتياز الوجودي).

إن الأكاديمي يسعى أن تكون له هويته الاجتماعية والأكاديمية الخاصة به التي تمكّنه من الانضمام إلى عضوية جماعة معينة، لأنه يود أن يكون معترفاً به ومعترفاً له من قبل الآخرين (كعضو يحمل سلطة ما ويمارسها داخل المجال الأكاديمي وخارجه، حيث تتداخل العلاقات). ولا بد لفهم أستاذ مادة ما وتقويمه التقويم المناسب، من أن نموضعه في حقله الخاص به، هذا الحقل الذي يتموضع بدوره في المحال الأكاديمي العام. . ولا، بد خلال التقويم الأكاديمي، من الاستناد إلى رساميل ثقافية وتعليمية ورمزية وثقافية (تلائم موضوعياً وإجرائياً هدف الدراسة) تتحدد بكل ما يخص المجتمع العربي من صراعات واستراتيجيات وثوابت وخصوصية سياق وثقافة. . من هنا أدخل الباحث مفهوم «أهلية الاحترام» أو المحترمية (Respectability)، وركّز على الطبقات الاجتماعية وبكيفية خاصة الطبقات الاجتماعية في العالم العربي قبل أن يشرع في تحليل الأكاديميين وسيامتهم.

وعندما تثار مسألة الطبقات وكيفية التعامل معها، «كان الفكر الماركسي حاضراً ولم يكن هناك مفر من أخذه في الاعتبار»[1]، خاصة من جهة تفسيره لعلاقات تناقض مواقع الطبقات مع قوى الطبقات، خاصة فيما خص نمط الإنتاج الرأسمالي.

وقد أعطى الباحث أهمية لـ «رايت» وتحليله للطبقات اعتماداً ليس فقط على العامل الاقتصادي، بل أيضاً على العاملين السياسي والايديولوجي.

كما عرض لما قدّمه «فيبر» في هذه المسألة، والذي حدد التراتب الاجتماعي بطريقة قريبة بشكل أو بآخر من ماركس، وإن الميزة الخاصة به، تكمن في تبنيه

(١) ص ٥١.

تعريفاً للطبقات مبنيّاً على أساس السوق وعلاقات التبادل، في حين تبنى ماركس تعريفاً مبنيّاً على الإنتاج[١].

وكخلاصة، فإن نظريتي ماركس وڤيبر تأخذان أصولهما من الحتمية الاقتصادية. ومن هنا، يرى «بورديو» أن بناء الطبقات الاجتماعية يتطلب إحداث قطيعة جزئية مع النظرية الماركسية، خاصة إحداث قطيعة مع النزعات التي لا تدرك الفئات الاجتماعية إلاّ من خلال إعدادها أو مواقعها الاقتصادية، الأمر الذي ربما يضر أكثر مما يفيد في إدراك واقع العلاقات داخل الفئة وبين الفئات. ذلك أن «بورديو» يعتبر هذه العلاقات عنصراً مهماً في التحليل الطبقي.

إن الباحث ركز مراراً ـ وبهذا الصدد ـ على أن ما يتعرض له يتعلق بشكل أساسي بالمجتمعات الرأسمالية الصناعية أو «ما بعد الصناعية» الغربية. إلاّ أن الدافع من تقديمها في كتابه، هو أن معظم هذه المفاهيم استعملت وأخذت في تحليل الطبقات الاجتماعية في الوطن العربي.

هذا، وإن البنية الطبقية المجتمعية في الوطن العربي عرفت تغييرات مستمرة في الآونة الأخيرة. والتغيرات التي حصلت في الوظائف الاجتماعية، والأنشطة الاقتصادية وتداخل العلاقات بين مختلف الطبقات الاجتماعية تجعل من الصعب دراسة هذه البنية باستعمال مقاربة واحدة، لهذا أعطى الباحث وضعاً عاماً للطبقات التي عنته في الدراسة.

يمكن تقسم الوطن العربي إلى أربع مجموعات اقتصادية[٢]:

١ ـ مجموعة الأقطار المنتجة للنفط.

٢ ـ مجموعة البلدان نصف المنتجة للنفط.

٣ ـ مجموعة البلدان غير المنتجة للنفط ونصف المصنعة.

---

(١) ص ٥٥.

(٢) ص ٥٨.

٤ ـ مجموعة البلدان الأقل تنمية وتصنيعاً.

يصنف «محمود عبدالفضيل» في مقالته «تضاريس الخريطة الطبقية في الوطن العربي: في نظرة إجمالية ـ نقدية[1] مختلف الفئات والطبقات في الوطن العربي في ثلاث طبقات:

١ ـ البورجوازية الكبيرة التي تطورت خلال فترة الاستقلال.

٢ ـ الطبقة المتوسطة أو الطبقة الفقيرة التي تدين في وجودها لثقافة الغرب وتأثيره ولنظامه التعليمي.

٣ ـ الطبقة العاملة والفلاحون.

إن دراسة الطبقات الاجتماعية يرغم الباحث على أخذ تملّك السلطة في الاعتبار. . ومن الملاحظ أن مواقع السلطة في المجتمع العربي ارتبطت دائماً بالوظيفة أو المهنة، أو الموقع في الهرمية التراتبية.

هذا ما كان محور الفصول الثلاثة الأولى، أما الفصل الرابع «حول الأكاديميين وتحولاتهم»، فقد بدأ **بتعريف الأكاديمي** تعريفاً بنيوياً وتحديده في إطار عدة عوامل: رأس مال الأكاديمي المعرفي؛ السياق الأكاديمي الذي يمارسه ويمارس فيه نشاطه ووظائفه المنوطة به؛ نوعية المؤسسات التي تحدد موقعه والتزاماته وحقوقه؛ علاقة رأسمالية المعرفي بنقل المعرفة إلى الآخرين ومسؤولياته في تلقين تلك المعرفة كمّاً وكيفاً للمستهلك، وأخيراً يمكن تحديده في قابليته للتماهي مع نشاطه الفكري في إطار إنتاجه العلمي والفكري وعلاقة ذلك الإنتاج بمصالح مجتمعه.

ومنذ القديم كان الأكاديمي يعرَّف من خلال أصله الطبقي ونمط حياته ونشاطه خارج المجال الأكاديمي، ففي الحضارة الاسلامية أصبح النشاط الأكاديمي مؤسساتياً، وأطلق على رجال الفكر والعارفين **بالعلوم الدينية** (المعيَّنون من قِبَل الخلفاء) مصطلح **العلماء**. . هؤلاء لم يكونوا مهيأين فكرياً أو علمياً

(١) المستقبل العربي ـ السنة ٩ ـ العدد ٩٥ ك٢ ١٩٨٧.

لتجاوز العقلية الدينية التي طبعتهم . . . وعملوا في **التدريس** وتوزيع المعرفة بشكل أساسي، إضافة إلى الافتاء والقضاء والعدالة والادارة والإمامة الخ . . . وشكلوا الشريحة الوحيدة المتعلمة تعليماً عالياً في المجتمع.

لكن دخول الثقافة الغربية وما تبعها من علمانية، أثر سلباً على موقع العلماء بحيث أضعفت مكانتهم ومواقعهم وألحقت تغييرات في بنية المجتمع العربي وفي نمطه الإنتاجي (توغل الرأسمالية الغربية وما أحدثته من توغّل وتحوّل في وظائف الطبقة المتعلمة تعلماً تقليدياً وفي أدوارها)، وبدأ يحل مكانهم تدريجياً المثقفون ذوو الثقافة الغربية، مما اضطرهم إلى التنازل عن كثير من امتيازاتهم السابقة لصالح المثقفين الجدد (لكن هذا لم يحدث موحداً في جميع البلدان العربية، كالسعودية مثلاً حيث ما زال العلماء يحتلون مواقع مهمة). . ولم تعد المعرفة الدينية وحدها القادرة على تأويل الحقيقة وتأسيسها. . وكنتيجة، انهارت هيمنة الفكر الديني ونظرته إلى الكون.

لقد دخلت العلوم الحديثة وظهر معها الأكاديميون والعلماء الجدد الذين يقاسون بكفاءاتهم وقدرتهم على استيعاب **المعرفة** ووضعها في مجال **التطبيق** (كأساس للرجل المثقف)، وظهرت العلوم الإنسانية والاقتصادية والقانونية والتقنية، التي ما لبثت أن بدأت بالتنافس فيما بينها.

إن الانخراط في الجامعات الموجهة توجهاً غربياً ازداد بشكل كبير خلال العقود القليلة الأخيرة، وأساسه تحول النمط المركنتيلي الزراعي (الذي كان سائداً) إلى نمط صناعي صاحبه في هذا النوع من المعرفة. لكن علاقة المثقف، الأكاديمي بالسلطة هي نفسها التي كانت سائدة في فترة ما قبل الاستعمار.

شهدت الجامعات العربية في السنوات الأخيرة نموذج أكاديمي. وبفضل الانتشار الواسع للتعليم وتغير موقف الآباء من تعليم البنات ولجت المرأة العربية الحلبة الأكاديمية وظهرت «المرأة العربية الأكاديمية» موضوع الفصل الخامس، الذي ركز على أن المرأة التي دخلت عالم الجامعة إلى جانب الرجل، حُسم

تعرجها في الاندماج الأكاديمي حتى الخمسينيات والستينيات من هذا القرن[١]. وبدت الأسر المدينية من الطبقتين المتوسطة والعليا على استعداد قبل غيرها للسماح لبناتها بدخول المدارس ومتابعة دراستهن في الخارج. لقد أثبتت الدراسة أن النساء الأكاديميات ممن ورثن الثقافة من أسرهن، لهن مكانة أرقى من تلك الأكاديميات اللواتي أتين من طبقات دنيا أو من أسر مترديه فقيرة، وأوضح استجواب النساء الأكاديميات أنهن يجدن هويتهن تقريباً في الثقافة الغربية، لكنهن لم يفلحن بعد في تغيير مفاهيم الرجال الأكاديميين لوضعيتهن في هرمية المؤسسات العلمية، خاصة وأن الرجال ما يزالون متأثرين «بالهابتوس» المرتبط بثقافتهم، في وقت تصارع فيه النساء الأكاديميات بكل قواهن لإحداث قطيعة مع الأحكام المسبقة لهذا الهابتوس، ومن أجل تغيير مفهوم الرجل للمرأة ودورها[٢]. ولدى المقارنة بين عدد الأبحاث النسوية وعدد الأبحاث الذكورية المنشورة فإن النسب الأولى أقل من النسب المنظورة للرجال. ومع هذا، فإن النساء يعتقدون أن ظروف عملهن قد تحسن عما كانت عليه قبلاً أو أنها في طريق التحسن. ومرد النقص يعود إلى المسؤولية الملقاة على عاتق المرأة الجامعية وما يتطلبه المجتمع من المرأة عموماً.

أخيراً، يرى الباحث في هذا المجال المتعلق بالمرأة الأكاديمية، إن النساء اضطلعت بمسؤوليات ضخمة ووظائف مهمة في المجتمع كانت من اختصاص الرجال تقريباً، لكن ومع ذلك، فما تزال النساء وبسبب مواقف الرجال والمؤسسات والمجتمع، في وضعية أقلية تعاني الحرمان من عدد من الامتيازات وعلى هذا الوضع أن يتغير.

عالج الفصل السادس «اكتساب النفوذ واستغلاله في المجال الأكاديمي» معتمداً ـ ولتجنب اللبس ـ على ترجمة Power للنفوذ، وعلى Authority للسلطة. وبدأ الفصل بتحديد ودراسة **الرساميل** التي يمتلكها الأكاديمي[٣] والتي

(١) يعزى هذا التحول الذي حدث في نوعية مكانة المرأة إلى تأثير الثقافة الغربية.

(٢) ص ١٠١.

(٣) يرى «بورديو» أن ميزة هذه الرساميل هي قابليتها للتحول بحيث يمكن تغييرها واستبدالها عبر عملية التعويض.

تسمح له عبر عملية **تعويض** (لما لهذه الرساميل من قابلية للتحول) من اكتساب **نفوذ**[١]، فالوجود العلمي لصاحب النفوذ الأكاديمي يرتبط ارتباطاً متيناً بنفوذه*، بحيث أن أي ضعف أو تنقيض يطرأ على ذلك النفوذ، يمكن أن يحدث آثاراً بليغة في صاحبه أو على الأقل يؤثر في مكانته ومحترميه. ولهذا، فإن صاحب النفوذ يعمل للحفاظ الدائم على نفوذه وعلى إعادة تأكيده والتشدد به على مصداقيته. إلّا أن النفوذ ـ مهما بلغت قوته وأبعاده ـ فإنه لا يصل إلى مستوى فعال نشيط إلّا عبر اكتسابه شكلاً من أشكال **السلطة** التي تحتاج بدورها إلى **الشرعية** كي يعترف بها. ويمكن اكتساب السلطة بدرجات متفاوتة، وهي تتسم بصفات لاعقلانية وسماتها تبدو في الاحترام الذي تحظى به[٢]، وأشكال السلطة في المجتمع العربي تنعدم فيها الأسس العقلانية لذا، فإن سلطة سلطة المعرفة به توجد ويستمر بقاؤها في وضع متقلب وغير أكيد، ذلك لأن من الصعب التنبؤ بما سيحدث في السياق الاجتماعي العربي. المشروعية فيه غير واضحة، والواقع مرتبط بخاصيات هرم النفوذ وتوزيعه[٣]. لذا، يرى الباحث هنا أنه يتطلب القيام بتحليل أنماط المحترمية التي يتطلع الأكاديمي العربي إلى اكتسابها، والوسائل والاستراتيجيات التي يستخدمها للوصول إليها، تم هذا التحليل في إطار الفصل السابع تحت عنوان «المحترمية والسلطة»، قُسم هذا الفصل إلى قسمين:

أولاً: اكتساب المحترمية.

ثانياً: الوسائل والاستراتيجيات.

---

(١) دخل في دراسة النفوذ وتحليله وفاعليته وممارسته في المجتمعات.

(٢) يقول دوركهايم، إن «احترام السلطة ليس بأي حال، غير مطابق للعقلانية، ما دامت السلطة مبنية على أسس عقلانية».

(٣) رساميل ← تعويض ← نفوذ
↓
سلطة
↓
مشروعية
↓
أنماط المحترمية

إن الباحث يعني بالمحترمية تلك الخاصيات التي تُكوّن للأكاديمي وتظهر في ما ينعم به من سلطة ونفوذ وتشريف في وسط معين أو فئة معينة، أو في المجتمع ككل. إن الأكاديمي كصاحب سلطة، يستثمر كل رساميله في السوق الأكاديمي والاجتماعي ليحصل على أقصى ما يمكن **اكتسابه** من احترام ومراعاة وتقدير، وهذا ما يُطلق عليه مصطلح «المحترمية» وما نقيسه بمقياس ندعوه «سلم المحترمية Scale of responsability» ولقد جعل الباحث سلم المحترمية في أربعة مستويات:

١ ـ العمل في الوظيفة (أو الاندماج في سوق الدولة)

٢ ـ السلطة/ النفوذ

٣ ـ امتلاك قوة الدفاع والردع

٤ ـ الحصانة

للمحترمية علاقة بالوسائل المستعملة لبلوغ مستوياتها، وقد حاول الباحث توضيحه عبر جدول، نختصره كالتالي:

إن سلم المحترمية واستراتيجيات الوصول إلى السلطة يرتبط بـ:

١ ـ الإنجاز العلمي والفكري
٢ ـ الانتماء السياسي والتحالفات
٣ ـ الوظيفة الإدارية والتقنوقراطية
٤ ـ العلاقات الاجتماعية أو الرأسمال الاجتماعي

ولقد فصل **النقطة الرابعة** بمجموعات ثلاثة أرفقها بحالات توضيحية[1] ومن ثم قوّم الإجابات (مجموعة أ: ذوو الرأسمال الاجتماعي الكبير ← من أسر معروفة وذات نفوذ. مجموعة ب: ذوو الرأسمال الاجتماعي المتوسط ← من الطبقة المتوسطة الصاعدة ولهم معارف أو وجاهة علمية. مجموعة ج: ذوو الرأسمال الاجتماعي الضعيف أو المنعدم ← من أوساط محرومة ثقافياً أو قروية الخ...).

(١) ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ١٤١.

كما أظهر تقويم الإجابات بوضوح:

أ ـ إن الرساميل المكتسبة تحدد نسبياً أبعاد السلطة والنفوذ اللذين يمتلكهما الأكاديمي في وظيفته الراهنة (كما هو في تقديره الشخصي). وكلما كان الرأسمال الاجتماعي كبيراً ومعززاً برساميل أخرى، كان مستوى المحترمية عالمياً. بينما أولئك الذين يكون رأسمالهم الاجتماعي والثقافي ضعيفاً وتعتمد سلطتهم على رأسمالهم العلمي، تبدو سلطتهم أقلّ من سلطة الآخرين.

ب ـ إنّ الأكاديميين العرب، ذوي السمعة الأكاديمية متوافقون على أن دوافع «العمل ذاته» و«الوجاهة والتشريف» و«المسؤولية» و«الدافع الإنساني» تشكل حوافز في عمل المثقف العربي. وفي الوقت نفسه، لا يوافقون على «التقدير والاحترام» والسلطة والنفوذ والأجر كعوامل تحرك نشاط المثقف. أما الأكاديميون ذوو الرأسمال الاجتماعي المتوسط فيثبتون هذه العوامل، نفسها كحوافز في عمل المثقف ما عدا دافع «العمل ذاته» ويترددون حول عامل المسؤولية. أما الأكاديميون المحرومون من الرأسمال الاجتماعي فلا تشكل المسؤولية لديهم والدافع الإنساني دوافع نحو العمل وترددوا بشأن العمل ذاته واتفقوا مع الغير على الباقي.

إن هذه المعطيات تؤكد أن الأكاديميين المتمتعين بالسلطة والنفوذ يميلون إلى التخفيف من قيمة عوامل السلطة والوجاهة والاحترام في عملهم، ويحاولون عن وعي أن يجدوا هويتهم في نشاطهم وعملهم لذاته.

ج ـ إن الأكاديميين الذي تعوزهم الرساميل ينحون باللائمة على الأنظمة السياسية السائدة في الوطن العربي بالنسبة لهجرة الأدمغة.

د ـ أولئك الذين يمارسون وظائف ادارية يعتقدون أن مكانتهم عالية ضمن الانتلجنسيا التي تشاركهم العمل الأكاديمي.

هـ ـ تؤثر صرامة السلطة والنفوذ الأكاديمي وصلابتهما. والهيمنة في السلطة تتحدد في كمية الرساميل التي يراكمها الأفراد والفئات ويوظفونها وفي مدى الحاجة إليها أكاديمياً.

إن العنصر الأساسي ليس المفاضلة البنيوية الوظيفية ولكنه التعارض الجدلي والتناقض في نشاط الأشخاص العاملين وفي وجودهم، ومن هذا المنظور، فإن علاقة السلطة بين الأكاديميين العرب تشير ظاهراتياً إلى وجود خاصيات لها سمات علاقات السلطة نفسها بين الأكاديميين الغربيين. إن علاقات السلطة أو علاقات القوى تكون منظمة ومتشابكة وتتبع أهمية مستويات المحترَمية، لذا فإن التمثل الذي يقيمه الأكاديمي لنفسه في سلم المحترمية والتمثل الذي يقيمه الآخرون له يشكلان معاً واحداً من **أسباب التنافس والصراع بين الأكاديميين**[1]. إن التعايش في المجال الأكاديمي لا بد من أن يخلق صراعاً واعياً ونشيطاً من أجل النفوذ والسلطة وحيث توظف كل الرساميل لتحقيق الغايات القصوى من النفع وتدعيم المواقع. وهذا **الصراع** السائد شبيه بالصراع الذي وصفه بلو Blau «سلاسل من الألعاب المختلطة والمتشابكة، تكون لكل مجموعة أعضاء نصيب فيها ولهم فيها مصالح متضاربة»[2].

من هذا المنظور، فإن الصراعات السائدة في المجال الأكاديمي تتعلق على الأقل بأربعة عناصر[3]: الامتياز العلمي ـ التماهي الثقافي ـ الضرورة الاجتماعية والموقع الأكاديمي أو الوظيفي. وقد رأى الباحث أنه من الضروري التمييز (في مرحلة ثانية من الدراسة) بين المجموعات العاملة في المجال الأكاديمي على أساس اختصاصاتها العلمية والمعرفية. ذلك أن موقع الأكاديمي، وفي المجتمع ككل، يتأثر كثيراً بالاختصاص الذي يمارسه، وكذلك تتأثر نظرة السلطات

---

(١) موضوع الفصل الثامن. ص ١٥٣. يقول «بورديو» «إن المجال الأكاديمي، شأنه في ذلك شأن أي مجال آخر، هو مكان للصراع من أجل تحديد الشروط والمعايير التي تضفي المشروعية على العضوية وعلى الهرمية التراتبية، وهذه الأخيرة هي التي تحدد الخاصيات الملائمة والفعالة والمسؤولة عن جعلها تعمل كرأسمال يحقق الأرباح الخاصة بالمجال والمضمونة فيه»:
P. Bourdieu, Homo académicas (London: Polity Press 1988), p. 11.

(٢) P.M. Blau. Exchange and Power in Social Life (New Brunswick U.S.A. Transaction Books 1986).

(٣) صراعات تُحمل بمصالح ودوافع خاصة وقواعد لعب معينة، هي مرتبطة ومتراكبة وتعطي ثلاثة أشكال متوازية (صراع بين المهيمَن عليهم وصراعات بين المهيمنين وصراعات بين المهيمنين والمهيمن عليهم). إنه صراع علني لكنه لا يتخذ طابع المواجهة المفتوحة.

السياسية والمؤسسات الادارية في تقويمها لمكانته. إن لهذا تأثيراً واضحاً على وجاهتهم وتمثلاتهم وعلى الصورة المكونة لهم (في أعينهم أو في أعين الإدارة والمجتمع..).

ونورد أهم ما ورد في نقاط الصراع تبعاً للمسائل التالية:

١ - يتسبب قياس درجة العلموية (سمة التميز في معرفة الأكاديمي) بحسب المعايير الموضوعية ووفق القواعد العلمية والادارية والقانونية في خلق «صراع الأقدمية» أو «صراع الأسبقية». هذا، ويعتبر المحافظون على الأقدمية العلمية أنفسهم «حراس العلموية». ويتخذ طابع العنف الرمزي تعارض وتنافس الأكاديمي القديم والجديد من أجل اكتساب الامتيازات والوصول إلى المواقع ذات النفوذ (وهذا ما يمكن أن يتواجد بين كليات مختلفة).

٢ - يتوازى مع الصراع من أجل «العلموية» Scientificity، صراع آخر سببه الاختلاف في الثقافة والتماهي. ولهذا الصراع طابع خاص في البلدان العربية (كبلدان نامية): أصحاب الثقافة الإسلامية وأصحاب الثقافة الغربية. وهذا ما يتعلق أحياناً بالإبداع والأصالة العلمية، فمنهم من يغترب عبر انتمائه إلى حقل يمنحه هوية ثقافية ورمزية (كوسيلة للاستعلاء) ويتماهى مع ثقافة أخرى، ومنهم من يجعل من ثقافته الأساسية رمزاً من رموز الأصالة أو شكلاً من أشكالها. وُجد هذا الصراع في البلدان العربية منذ مطلع القرن، إلّا أنه أخذ بُعداً جديداً في العقود الأخيرة. ولا يزال الأكاديميون في خضم نقاش هذا البعد حتى الآن.

٣ - هناك صراع آخر أساسه التخصصات المعرفية لا سيما بين أصحاب التخصصات الإنسانية من جهة، وأصحاب التخصصات العلمية والتقنية من جهة أخرى. وهو صراع مواقف وتصورات.

٤ - صراع ينشأ عن محاولة أصحاب السلطة المؤسسية مراقبة نشاطات الأكاديميين، وعن ادعائهم لأنفسهم سلطة حفظ النظام والقانون داخل الحرم الجامعي. إن السلطة المؤسسية وسلطة الدولة والبيروقراطية تنعكس في المجال

الأكاديمي، بحيث يكون على الأكاديميين أن يقتنعوا بضرورة الطاعة والامتثال للنمط السائد في الدولة وبضرورة تعزيزه بإنتاجهم العلمي ونقلهم للمعرفة، أما الذين لا يمتثلون له، فإن الأمر ينتهي بهم إما إلى الفصل عن العمل، وإما إلى النفي السياسي.

خُصص بعد ذلك «الفصل التاسع» لدراسة مكانة الأكاديميين العرب ووظيفتهم:

إن الأكاديميين العرب يتطلعون إلى اكتساب قدر من الاحترام والاعتبار بحيث يرغبون في مكانة أكاديمية معززة ومكرمة ومعترف بها. ولربما كان اكتساب المكانة وضمان بقائها من بين الأهداف الأساسية التي يسعى الأكاديميون العرب إلى بلوغها. وقد اتضح في هذه الدراسة، ومن خلال أجوبة الأكاديميين العرب الذين استُطلعت آراؤهم، أن المكانة التي يسعى إليها هؤلاء خالية من **التطلع إلى اكتساب المزيد**، ذلك أن تطلعهم إلى المكانة ليس من أجل الرقيّ ولكن لأن المكانة تشكل في حد ذاتها ضرورة حيوية بالنسبة إليهم. كما أظهرت الدراسة أن دوافع السلطة والوجاهة والتشريف تشكل حوافز للعمل عند المشاركين المنتمين إلى الانتلجنسيا العربية، بينما تشكل دوافع الاعتبار والمسؤولية والدوافع الإنسانية حوافز للعمل عند الأكاديميين التقنيين.

من جهة أخرى، إن نقصان الحرية والاحترام والاعتبار وعدم توافر العمل المناسب تشكل أسباباً رئيسية في هجرة الأدمغة العربية نحو الغرب.

وغالباً ما تشكل الوجاهة والمكانة والمصلحة مصادر للتنافس بين الأكاديميين، وكل عملهم يتجه نحو تعزيز المكانة وضمان بقائها (مع تعزيز اكتساب قدر من المحترمية والسلطة والوجاهة).

وإذا كان الأكاديمي يعين في المؤسسة ويندمج فيها بكيفية قانونية ومشروعة، فإن ما يحدد موقعه ويميزه يرتبط برأسماله الثقافي والتعليمي وبعامل آخر وهو **المكان** الذي أخذ منه معرفته والمصدر المعتمد فيها ومؤهلاته الجامعية. أما نموذج

العلماء الذي سبق تقديمه فهم في وضع يأسفون فيه على ما فقدوه ويشعرون أن أصحاب المعرفة الجديدة تجاوزوهم وتخطّوهم.

يرى أخيراً د. صبور في هذا الفصل أن السلوك «الغيري»؛ أي على المثقف أن يكون غيريّاً (نسبة إلى الغير/ ضد الأنانية) وينفي عنه المصلحة الشخصية ـ؛ ولا يمكن أن يصدق على جميع المثقفين. كما يرى أن الحكم على المثقف العربي يتطلب الأخذ بعين الاعتبار أنه (أي المثقف) ينتمي ـ في أغلب الأحيان ـ إلى الطبقة الدنيا أو المتوسطة، وان النظام التعليمي الذي أنتجه هو نظام نخبوي وأن أسرهم تنتظر النفع والفائدة من وراء وصولهم إلى المجال الأكاديمي.

إن الأكاديمي العربي يتطلع إلى اعتبار خارج موقعه الثقافي (اعتبار عالمي)، لأن اعتبار وسطه له يتأثر بالاعتبار الذي يلقاه في الخارج. وهذا الاعتراف لا يتوافر إلّا عبر الإنتاج العلمي والفكري وبالمؤهلات العلمية العالية.

إن المجتمع العربي يمر اليوم بأزمة عميقة تمس الهوية الثقافية تنعكس على وجود الأكاديمي ونشاطه[1]، وكنتيجة، فإن العربي الأكاديمي يمر دائماً بنوع من الأزمة التي أشار إليها العروي «أزمة المثقف تعكس أزمة مجتمعه»، وأن ما خبره المجتمع العربي من تغيرات في البنى والمؤسسات وتقسيم العمل لم تؤثر في توزيع السلطة وعلاقات السلطة بين عالم الفكر وعالم السياسة، إذ من المعلوم أن هذا الأخير هيمن باستمرار في تاريخ العالم الإسلامي على عالم الفكر. وإلى اليوم، ما يزال أرباب الفكر يعيشون تحت رحمة عالم السياسة وسلطته. إن هذه الأزمة المنعكسة في المجال الأكاديمي قد خلقت تنافساً حاداً بين العاملين في هذا المجال، وبين أرباب السلطة والمتطلعين إليها.

لقد خلصت الدراسة التي بين أيدينا إلى الأمور التالية:

١ ـ لفهم موقع الأكاديمي ومكانته يجب الأخذ بعين الاعتبار كل العوامل

(١) موضوع الفصل العاشر ١٩٧.

المرتبطة بوجوده في مجاله وبتعايشه فيه وعلاقاته الخاصة ومع المجموعة ومع المحيط.

٢ ـ يحتل الأكاديمي الذي يمتلك معرفة الغرب وخبرته مكاناً وموقعاً بارزاً.

٣ ـ إن ما يحصل عليه الأكاديمي من جزاء مادي مقابل بيع معرفته في السوق الرسمي للدولة لا يمكنه من العيش عيشة كريمة.

٤ ـ رغم تطلعاته، فإن العلاقات الاجتماعية والعائلية ما زالت تمثل دوراً أساسياً وحيوياً بالنسبة للأكاديمي.

٥ ـ يمر الأكاديمي العربي بتجربة صعبة في حياته الراهنة، فهو من جهة يدرك ذاته وتصوراته، ومن جهة ثانية هو غير راضٍ عن وضعه الاقتصادي والمادي ووضعه السياسي والمؤسساتي.

٦ ـ الامتلاك والإرث لرؤوس الأموال المتنوعة يخلق نوعاً من الامتلاك للسلطة وللنفوذ وللرضى وللحصانة وللموقع.

٧ ـ يصارع الأكاديمي ـ من أجل فك عزلته في المجال الأكاديمي والثقافي ـ ضد الإقليمية في مواجهة السياق العالمي (المتروبول العلمي الغربي). وبالتالي، فإن الأغلبية تشعر ـ نتيجة محدودية رأسمالها ـ بالإحباط والخيبة والألم، ويظهر هذا في نبرتها الاحتجاجية خاصة لدى من يملك رأسمال المعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية (الذين يعانون النقص أكثر من غيرهم).

٨ ـ يؤدي الأكاديمي مهامه العلمية بقليل من الحماس، مما يبعدنا عن الحديث عن إبداع فكري أو تقدم علمي، لأن الأكاديمي مغترب عن عمله تنقصه حرية العمل وما يصاحبه من شعور بالإنجاز وإشباع لرغبات الذات. وهذا ما يطبع نشاط الأكاديمي بعدم الاستقرار وانعدام الهدف.

٩ ـ إن اغتراب المثقف العربي ليس اغتراباً ثقافياً فحسب، بل هو اغتراب متعدد الأوجه (نتيجة معاناته القمع ومعاش حالة الحار الوجودي في عدم اتخاذ قرار أو تعبير الخ..). إنه ـ كما شبّهه الباحث ـ **يشبه وضع مصارع ثيران دون**

موليتا (أي دون قطعة القماش الأحمر التي يستعملها مصارعو الثيران لإرهاق الثور).

١٠ ـ إن الانتلجنسيا العربية ربما كانت أصعب فئة يمكن دراستها[1] في الوطن العربي، وهذا يعود إلى أن تقاليد البحث الامبريقي والشك في مصداقيتها ما تزال في بداياتها، وإلى حساسية طرح قضايا ايديولوجية وسوسيولوجية، أو حتى التعبير عما يبدو من «الأسرار الشخصية» مما يثير الشك وعدم الاستعداد للمشاركة واعتبار المشاركة في الدراسة مخاطرة.

إن الجامعة والعالم الأكاديمي بصفة عامة يعتبران من الأماكن الحساسة سياسياً في المجتمع العربي؛ والوصول إليهما دون مساعدة رسمية يُعد أمراً شائكاً وصعباً.

وبانتقادات الأكاديميين تنتهي دراسة المعرفة والسلطة في المجتمع العربي، ويضيف إليها الباحث ملاحق حوت مقابلة مع أحد الأكاديميين كحالة توضيحية، ونص الاستمارة التي وزعت على الأساتذة المشاركين في الدراسة، إضافة إلى ملحق يضم أهم الأسئلة والقضايا المطروحة في المقابلات التي أجريت مع الأكاديميين.

(١) موضوع الفصل الحادي عشر ٢٠٧.